حرية

الاتجاه الادبي

الأدب العربي من نظم ونثر له اتجاهات محدودة في المعنى والأسلوب على قدر مؤثرات العصور التي مرّ بها، غير أنه في كل دور من أدوار حياته مرآة صافية تتجلى فيها حياة العصر بأضوائها وظلالها بأبهى صورة وأدق معنى.

ولقد بالغ نقاد الآداب في تعداد الاتجاهات الخاصة بها والأساليب التي يجب السير عليها متمشين في ذلك بما شاءت لهم قوة براهينهم الدامغة وبيانهم الناصع. فأوجدوا — من الاتجاهات — الاتجاه الكلاسيكي (الاتباعي) وهو السير على نهج القدماء، والمذهب الابتداعي الذي ينطوي حسب قولهم على الانكماش في مباهج الحياة والابتعاد عن الانغمار في خضمها، والجلوس في البروج العاجية ومناجاة الدمن والأطلال والمقابر وغيرها ... والمذهب الرمزي الذي يرمي الى الايحاء والابهام والذي تشبه بحوثه أو مواضيعه (الكنايات) ولكن بصورة تفصيلية، ومذهب السريالزم المنطوي على أحلام وما وراء العقل الباطن، والمذهب الواقعي الذي يعرض محيط الحياة من الشاطئ الى الشاطئ على حد ما يرمي اليه معنى قولهم. ولقد بالغ دعاة هذا المذهب في الحض عليه حتى ليخيل لقارئ بحوثهم أن الحياة معلقة بهذا النوع من الأدب مع إنها وليدة العلم وربيبته. وكان أحرى بهؤلاء الدعاة ان يدعوا الناس الى اقتبال روح العلم الحديث واتباع سننه في الحياة واستغلال نظرياته في تطور الحياة ورقيها، كما استغلته شعوب الأرض فنجحت وتقدمت ولم تتقدم لو بقيت متمسكة بقول الشاعر.

نسج الريح على الماء زرد   يا له درعاً منيعاً لو جمد

أقول هذا لأني لا أعتقد بحتمية وجود هذه التقسيمات، ولأن هذه الاتجاهات ما هي إلا وليدة ميول موروثة متداولة في سيكولوجية الجسم البشري وتركيبه العضوي

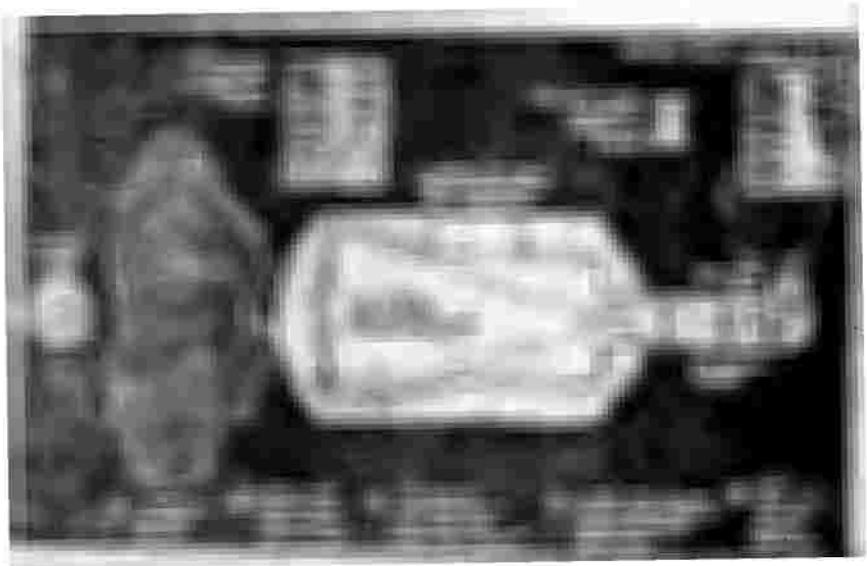

شكل (٤) رسم «كروكي» للفلوروسكوب الكهربي يوضح كيفية تقويته لاشراق صورة أشعة رنتجن

الشكل الذي على اليسار بأعلى الصورة يمثل صورة باهتة للحجاب الأول من حجب أشعة رنتجن، والذي على اليمين يمثل صورة مشرقة على الحجاب الثاني المتألق من حجب أشعة رنتجن. والرسم البياني للصمام يمثل صورة العدسات الكهربائية الساكنة التي تعجل سير الكهيربات وتحشدها في بقعة واحدة. وقرب فوهة الصمام منشور زجاجي عاكس. وفي رقبة الصمام عدسة مكبرة

وفي أسفل الصورة يسرة (١) صمام أشعة رنتجن — الذي تنطلق منه الأشعة في جسم المريض (٢) حجاب متألق يلتقط أشعة رنتجن فيحيلها ضياء أزرق (٣) غشاء معدني حساس بالضوء يحيل الضوء الأزرق تياراً من الكهيربات (٤) حجاب متألق للقاعدة يحيل الصورة الكهربية، ضياء مشرقاً أصفر (٥) الطبيب يرى صورة أشعة رنتجن أعظم اشراقاً ٥٠٠ مرة

(البيولوجي) وقد تتفرع على مرّ الأيام اتجاهات أخرى مبنية على الميول المكبوتة إذا ما صادفت محيطاً مناسباً لازدهارها . فقد أثبت علم النفس أن كل انسان يولد ومعه قابلياته وميوله وغرائزه الخاصة ، فهذا ميال للرياضيات لقابليته الطبيعية لها ، وهذا للرياضة ، وذاك للاجتماع أو الموسيقى أو الآداب وغيرها . وكذلك نص الكفاءة ذات اتجاهات وميول مختلفة فمن الأدباء من يميل الى الاعتزال ومناجاة الطبيعة فيستغل كفاءته الأدبية في هذا النوع من الأداء . ومنهم من يميل إلى الغزل والغناء فيلمع في شعر الرقة من غزل وتشبيب وتشبيب ، ومنهم من يميل الى السياسة والزعامة فيبدع في شعر الحماسة والحكمة وغيرها . وعلى هذا الأساس فإننا لا يمكننا بأية حال أن نرغم الشاعر الغزلي بأن يكون شاعراً حماسياً جمهورياً لأن الطبيعة لم تجهزه لذلك . ولذلك فلا يجود ولا يجيد الشعر ، ومن ثمّ فلا يصيب الهدف ولا تحصل الفائدة منه ، هذا إذا ما عرفنا أن الحياة ليست السياسة والاجتماع فقط ، بل لها نواحٍ متعددة ، وكل فرد سواءٌ أكان شاعراً أو أديباً أو عادياً فله نصيب ولو ضئيلاً في بناء الحياة فمثل من يكتفي بكلامه في التلميح ومن يكتفي بالأطناب . وعلى ما تقدم فإني أرى النقد على أساس المذاهب السابقة غير صحيح وغير مؤيد من العقل والطبيعة البشرية ومن طبيعة الشعر ، لأن الشعر لغة العواطف وهذه ان لم تهيج يأتِ الشعر بارداً خالياً من حرارة العاطفة لا يهزّ المشاعر خالياً من كل فائدة ترجى منه .

ولقد غالى بعض نقدة الآداب في ذم الشعر القديم (الكلاسيكي) في المعنى والاسلوب مع أن الحياة ذات كائنات حية غير متساوية الميول والمشارب ، فلكل جماعة ميول متقاربة تهوى لوناً من الأدب كما تهوى بعض الناس لوناً من الغناء وتكره آخر . فليس من الانصاف أن نسمهم اصطناعياً في ذلك ، واحد للانصات لذوق واحد . هذا بالاضافة الى ان نقده انما مستند على القديم ، وكتب البلاغة العربية كلها مستندة عليه ، فلم نجد في شواهدها شيئاً من الشعر الحديث ، فكيف اذن نعتز به ونتغنيه إلاّ اذا ضربنا بها عرض الحائط . ويمكنني ان أقول انّ شاعرنا الحديث لا يستفحل إلاّ إذا جارى القدماء في صياغة الاسلوب مع نقد حوشي الكلام . وهذه حقيقة يقر بها كل شاعر أو أديب لو سئل عنها . إذ أنه مهما تقدم في صياغته فإنه يقر بتقصيره عن سبق القدماء في روائعهم وحتى عن مساواتهم . وأحسن

قصائد شوقي في معارضاته وما نسج على بلاغة الاسلوب القديم .

ويحض بعض النقدة على اقتباس الشعر الغربي ويحسبونه فوق كل شيء فكأنه الشعر الملتهب العواطف الحماسة والأخيلة الرفيعة خصتا بالغربيين، مع أن في شعرنا القديم والحديث والنفس والتسمين علاوة على مفارقات الذوق . وإني لا أرى ان هذا الشعر أحسن من الشعر العربي ولا أحرم الترجمة وتلاقح الفكر والخيال. ولكنني أرى أن لا يعتبر غاية وقمة للأدب العربي . ثم أرى ان ينصب عند ترجمته — نظماً أو نثراً — الى قائله أو أن يوضع بين علامتي اقتباس لأن كثيراً من ناظمي الشعر وناشئة الأدب أساءوا الاستعمال فترجموا القصائد الغربية ونسبوها لأنفسهم وطبعوا دواوين منها مع انهم لا يحسنون النظم الصحيح بدليل كثرة الأخطاء العروضية فيها، ولا شك ان هذا مسخ وجرم وسرقة في رابعة النهار . إذ أن الترجمة أن يقتفي قسمة الفضل لذويه، وخير مثال لذلك في الانصاف الدكتور الشاعر « أحمد زكي أبو شادي » فانه يضع النص الانكليزي ويجنبه النص العربي المنظوم بمعناه من غير زيغ ولا تحريف ولا سطوة على آثار الناس كما يفعل بعض الشباب الذين أسلفنا القول عنهم . فنستخلص مما تقدم أنه لا ضير على أي أديب أو شاعر إذا ما انتهج نهجاً موافقاً لميله في الانتاج . لأن الطبيعة خصته بذلك، وكل فرد مسير لا مخير . وإنه لا نقد على أي اتجاه أدبي إذ أن هذا معناه نقد لتكوين النفس وتركيب الجسم ولا قدرة لمخلوق على اصلاحهما ، وأن الأدب الذي يمثل الحياة أو يجسمها لا يمكن أن يقوم به أديب واحد، بل انه يتكوّن من مجموعة نوازع الشعراء والأدباء الفطرية، وليس بالشرط أن يكون كل شاعر سياسيًّا ومن يعتقد بذلك فكأنه يجاري الشاعر العربي في قوله :

ليس على الله بمستبعد ان يجمع العالم في واحد

وانه لا توجد عبارة الأدب للأدب إلا في البحوث الخاصة برقي الأسلوب الأدبي في الصياغة، وأن النقد الأدبي يجب أن يشمل أو يقتصر على النقد الفقهي الخاص بفنون اللغة العربية كالعروض والنحو وعلوم البلاغة العربية . وأما نقد الاتجاه فهو من صفات المكان الحي فلا اعتراض ولا نقد عليه . ومن يتصدّى لذلك ، نطلب منه أن يوجد لنا خلية حية .

القورنة — البصرة ، منير شبلي الصقر